الشخصية العربية
في الفكر المعاصر ونموذج الشخصية المسلمة

د. تركية عبدالحفيظ الواعر

محاضر/ قسم الشريعة /كلية العلوم الشرعية تاجوراء -جامعة طرابلس

تمهيد:

اهتم كثير من علماء الاجتماع و(الإنتربولوجيا) و(الجينيولوجيا) بدراسة الشخصية القومية التي تعني: "وصف السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما، تلك التي تتسم بثبات نسبي، والتي يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم"[1]، والمتتبع لتاريخ دراسات الشخصية القومية يجدها تنقسم إلى مرحلتين متمايزتين، المرحلة الأولى: هي مرحلة التفكير المبني على الأفكار النمطية (stereotypes) والقوالب الجامدة، وهي مجرد نظرات انطباعية تلتصق بجماعة، وبدأت مع الحرب العالمية الثانية، وقد تميزت باستخدام المنهجية العلمية الحديثة في العلوم الاجتماعية، وظهرت مع توسع حركة الباحثين في الدراسات (الإنثروبولوجيا) الاجتماعية، وكان للمصالح السياسية دور كبير في الدفع بتلك الدراسات[2]، ومن بين أهم الشخصيات القومية التي كان هناك اهتمام بدراستها وتحليلها: الشخصية العربية؛ فقد كانت وما زالت - الشخصية العربية، أو "العقل العربي" كما يسميه البعض- مثار اهتمام، سواءً من الغربيين، أو المستشرقين، أو من اليهود، وحتى من العرب أنفسهم؛ فمنهم من اهتم بالشخصية العربية ككل، باعتبارها

---

[1]- يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة ومفهوم الآخر، بيروت:دار التنوير للطباعة والنشر،1983، ص 45.

[2]- المرجع السابق، ص 41-43.

شخصية واحدة لها نفس الخصائص والسمات بدون تحديد للتقسيم الدولي للمجتمع العربي، وهناك من تناولها كشخصيات مستقلة ومتميزة عن غيرها، كالشخصية المصرية، والشخصية الكويتية، والشخصية الليبية.

فالبحث هو مراجعةٌ لبعض الدراسات والأبحاث والكتّابات التي تناولت الشخصية العربية -سواء تلك التي قام بها العرب أنفسهم، أم تلك التي كتبها الآخر- عن الشخصية العربية؛ بهدف الإجابة عن تساؤل رئيس يقول: إلى أي درجة تتفق تلك الصورة النمطية للشخصية العربية ونموذج الشخصية المسلمة؟ بهدف المساهمة في النقد الذاتي للصورة النمطية التي ما يزال يؤكد على استمراريتها الكثير من المفكرين العرب بتجاهل النموذج المثالي للشخصية المسلمة، والذي يسعى البحث إلى تحديده من أجل استخدامه في دراسات وأبحاث مستقبلية .

الفصل الأول: تأصيل مفاهيمي ومقاربة نظرية

المبحث الأول: الشخصية، بناء وتشكّل

أولاً- الشخصية:

إن معظم الأدبيات المهتمة بتعريف مصطلح الشخصية ذهبت إلى أن مصطلح (البيرسونا) كان يشير إلى القناع المسرحي الذي ارتبط بظهور المسرح الإغريقي، ويذكر أحمد عبد الخالق في كتابه: (الأبعاد الأساسية للشخصية) (1987ف) بعض التعريفات المهمة للشخصية، أهمها تعريف جوردن ألبورت القائل: إن "الشخصية هي التنظيم الدينامي داخل الفرد، لتلك الأجهزة النفسية الجسمية التي تحدد طابعه

الخاص في توافقه لبيئته – وقد استبدل المؤلف نفسه في نص أحدث بعبارة (توافقه لبيئته) عبارة (التي تحدد خصائص سلوكه وفكره)" [1].

وبمراجعة واسعة للعديد من التعريفات لمصطلح الشخصية يلاحظ أن علماء النفس قد اهتموا بالجوانب الفردية للشخصية التي تميز كل فرد عن غيره من الأفراد، وبالعوامل الوراثية والبيولوجية أكثر من تركيزهم على أثر البيئة الاجتماعية، إلا أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يهتمون بعملية التفاعل المتبادلة بين الفرد والمجتمع، وبمعنى آخر بين الشخصية والثقافة، ويرون أن الشخصية هي: "تنظيم يجمع اتجاهات الفرد، ويتكون هذا التنظيم من خلال تفاعل الفرد مع غيره في الحياة الاجتماعية، فنحن نعتمد على الآخرين كحوافز للسلوك وكمعلمين للسلوك"[2]، وفي هذا يشير سيمون كلابيه فالاون في كتابه عن نظريات الشخصية إلى أن علم النفس الاجتماعي يقوم بدراسة الشخصية من خلال تبنيه لثلاث اتجاهات في بحوث الشخصية، وهي: الدراسات الإنتروبولوجية، ودراسات التكيف الاجتماعي للفرد، والدراسات السلوكية في إطار نظريات الوضع والدور والموقف[3].

ما يركز عليه هذا البحث بالنسبة للشخصية هو الشخصية القاعدية العربية، وتحديداً (الشخصية المسلمة)، والشخصية القاعدية هناك من يسميها الشخصية القومية أو الوطنية أو المحلية، وفي هذا يقول المنصف ونّاس في دراسته (الشخصية

---

[1]- عبدالخالق، أحمد محمد، الأبعاد الأساسية للشخصية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1987:39.

[2]- صدقي عاطف، الثقافة والشخصية، بيروت: دار النهضة العربية ،1981 ص 105.

[3]- فالادون ، سيمون كلابيه ، نظريات الشخصية ، (ت) علي المصري ، ط 2، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1993: ص 11-12.

الليبية): "إن الشخصية القاعدية حالة ديناميكية، تجمع بين الوطني والقُطري، والشامل والخصوصي، تدليلاً على تعدد الشرائح المكونة لها، وعلى ثراء مخزونها التاريخي والثقافي والاجتماعي والإثني"[1]، وعليه فإن هذا البحث سيسعى إلى بناء نموذج مثالي من سمات الشخصية العربية المسلمة .

ثانياً- مفهوم الذات:

يُعرّف قاموس علم الاجتماع للجوهري مصطلح "أنا (ذات)" بأنها: "تستخدم الـ(أنا) لتحديد متغير وسيط (Self)، وإن "أنا" (ذات) يستخدم في وصف وتكامل المميزات السيكولوجية لأحد الأفراد، وتستنج تلك الميزات على أساس تقديرات الفرد عند وصف شخصيته كما يدركها هو بنفسه"[2].

ويرى عالم النفس الاجتماعي مورفي G.murphy في كتابه "الشخصية مدخل بيولوجي اجتماعي لدراسة الأصول والبناء " م1947 Personality: a biosocial approach to origins and structure" أن الذات هي تصور الشخص لنفسه ككل، بدون أن يكون هناك اتجاه سوسيولوجي واضح، مثل G.H.Mead الذي يعدّ من العلماء أصحاب الاتجاه السوسيولوجي الذين يرون أن الذات هي اجتماعية بالأساس، وأن الفرد يأخذ دور الآخرين ضمنياً، ما يُكوّن تصوراً عن ذاته قائماً على أساس استجابات الآخرين له، بينما علماء النفس يتبنون اتجاه الطب النفسي، مثل هـ .س سولفيان Sullivan في كتابه "نظرية ما بين الأشخاص في الطب النفسي The Interpersonal theory of psychiatry

---

[1]- ونّاس، منصف، الشخصية الليبية: ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، تونس: الدار المتوسطية للنسر،2014: 22.

[2]- قاموس علم الاجتماع، عبدالهادي الجوهري، ص: 26.

self-system الذي يردُّ الذات إلى نسق الذات، وقدمها الفريد ادلر Alfred Adler على أنها نسق ذاتي شخصي، ولديها أسلوبها الخاص والمميز[1].

ثالثاً- بناء الشخصية الاجتماعية:

لوضع تعريف أو تشخيص نظري يفسر تبلور أو تشكّل الشخصية وتكونها، سيتم استعراض بعض الأفكار النظرية والأعمال التي لها علاقة مباشرة بتحوّل الفرد الكائن الحي إلى كائن اجتماعي وتَشكّل الشخصية، وذلك من خلال الأعمال المهتمة بتحديد العلاقة بين التغير الاجتماعي الثقافي والشخصية. انطلاقاً من أن شخصية الفرد هي نتاج العوامل المجتمعية، وهي بلورة لكل السمات الخاصة به، والتي تميزه عن غيره؛ لأنها تحدد اتجاهاته، وتجسد أنماط سلوكه .

1. أعمال سيجموند فرويد:

اهتم فرويد بالسلوك الإنساني وببناء الشخصية، واضعاً عدداً من الافتراضات التي زعم أنها تتحكم في بناء الطابع الاجتماعي للفرد، منها تلك التي ترى أن سمات الطباع يحكمها الطابع الديناميكي؛ فهي ليست عادات أو سلوكيات مكتسبة؛ بل هي قوى تدفع الفرد، وكل تلك القوى الدافعة تتحكم فيها رغبات جنسية لبيدية[2]؛ فهو يفترض "أن كل أشكال السلوك محددة أو مدفوعة ببعض القوى الداخلية في الفرد. وهذا يعني أن كل سلوك له معنى. حتى أبسط أشكال السلوك التي تظهر نتيجة عوامل نفسية لا يدركها الفرد ولا يحسها"[3]، إلا أنه في أعماله الأخيرة وخاصة كتابه: "علم النفس الاجتماعي وتحليل الأنا " قد ركز على تأثير

---

[1]- المرجع نفسه،ص:29.

[2]- عبدالله محمد قاسم، الشخصية استراتيجياتها "نظرياتها" وتطبيقاتها الإكلينيكية والتربوية الشخصية والعلاج النفسي، سوريا: دار المكتبي، 2000، ص:36.

[3]-المرجع السابق، ص 28.

الجماعة على الشخصية، مؤكداً على خضوع الفرد، ولم يعد يؤكد كثيراً على أن سلوك الفرد يكون مدفوعاً بغرائزه الفطرية فقط، بل إن فكرته اقتربت كثيراً من فكرة العقل الجمعي عند دوركايم.

2. أعمال إريك فروم :

يعد أريك فروم من أنصار النظرية الفرويدية الجديدة، ومن أنصار الاتجاه النفسي التحليلي المحدثين، الذين رفضوا فكرة أن يكون الفرد كائناً غريزياً محضاً، تحركه الرغبات والشهوات، مخالفاً فرويد في فكرة أن اللبيدو هو القوة الدافعة للسلوك الإنساني، نافياً أن تكون السنوات الأولى للفرد وتجاربه فيها هي المسؤولة عن تشكُّل شخصيته، بل أكد على أن هناك تأثيرات أخرى مستمرة مع الفرد طوال مراحل حياته، فسمات الشخصية عنده متغيرة وليست ثابتة، حسب المجتمع وظروفه، فالتغير الاجتماعي والثقافي له دور كبير في اتجاهات الفرد وأفكاره، كما ذهب فروم إلى أن التحليل النفسي للفرد يمكن أن يستدل منه على نوع البناء الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد، وأن معرفة سلوك الأفراد في أي مجتمع تتم بمعرفة الأساليب التي يتشكل بها بناء ذلك المجتمع، حيث إن استقرار المجتمع يؤثر على درجة استقرار أفراده، وإن ما يحدد شخصيات الأفراد وأنماط سلوكهم وطبيعة الأخلاق –كما يعتقد فروم - هي قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، حيث يؤدي تغير النظام الاجتماعي والاقتصادي إلى تغير سمات الطباع الاجتماعية[1]، وبالتالي فما يحدد الشخصية الإنسانية عند فروم هو البناء الاجتماعي .

[1]- البناء الاجتماعي والشخصية، محمد سعيد فرح، مرجع سابق، ص ص:40-46.

3. أعمال بارسونز:

يتفق بارسونز مع فرويد في أن للشخصية عناصر تتكون منها، إلا أنه سماها بمسميات أخرى، ووظائفها عنده تختلف أيضاً، لتركيز بارسونز على التأثير الثقافي إلى جانب التأثير الفسيولوجي، فهو يقول: "نظام الشخصية نظام سيكولوجي مميز، وليس نظاماً بيولوجي على مستواه الخاص به، وله مشاكله المتعلقة بتحقيق التكامل بين أجزائه المختلفة، وله حدوده الخاصة به وما يتعلق بصيانة هذه الحدود من مشاكل، وله أيضاً نزعاته الخاصة بتوازنه"[1]، كما عاب بارسونز على فرويد عجزه عن فهم الشخصية الإنسانية بصفتها نسقاً متفاعلاً مع النسق الاجتماعي ونسق الثقافة، فبارسونز قام بدراسة مكونات الشخصية باعتبارها نسقاً يحوي عدداً من العناصر المتفاعلة، فال(هو) هو الكائن العضوى، وال(أنا) هو الموقف الاجتماعي، وال(أنا) الأعلى هي أنماط الثقافة، فالشخصية عند بارسونز هي: "نسق منظم يأتلف توجهات الفرد القائم بالفعل الاجتماعي، ودوافع فعله . والوحدة الأساسية المؤلفة لنسق الشخصية هي الحاجة الدافعة ...، وتمتاز الحاجة الدافعة عن الحوافز، فالحوافز ميول مفطورة كحافز الجوع أو الجنس، والحوافز طاقات فيزولوجية تجعل الفعل الاجتماعي ممكنا "[2].

وفي هذا تصور واضح لفكرة الترابط والتكامل بين الأنساق، فسلوك الفرد واتجاهاته يتأثر بنظم النسق الاجتماعي، حيث يتعرض نسق الشخصية إلى عملية استدخال تلك النظم بما فيها من قيم ومعايير وقواعد عبر عمليات التنشئة المختلفة، وستمتثل الشخصية لتلك القواعد والمعايير والقيم؛ لأن كل الأفراد يمتثلون لتلك

---

[1]- المرجع السابق ص:116.

[2]- محمد عارف، المجتمع بنظرة وظيفية، الكتاب الأول: الوظيفية ملامحها العامة وابعادها التاريخية وصورها المعاصرة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية،1981 ، ص: 219.

النظم الدافعة للفعل الاجتماعي المتوقع، وبالتالي فالشخصية تتوحد مع تلك القواعد والمعايير والقيم، عكس تصور دوركايم الذي يقوم فيه القهر والجبر بالدور الأساسي للامتثال للعقل الجمعي للمجتمع، وهنا يتضح تأثر بارسونز بالتصور الدوركايمي فيما يخص "العقل الجمعي"، إلا أن الشخصية تتوحد مع تلك القواعد والمعايير والقيم، عكس تصور دوركايم، وبالتالي فإن الشخصية عند بارسونز تتشرب كل القيم المرغوبة، والمعايير والقواعد المحددة، الموجودة في المجتمع، وتتوحد معها عن طريق ميكانزيمات التنشئة الاجتماعية، وهذا من شأنه أن يحافظ على بقاء النسق واستقراره وتوازنه .

المبحث الثاني: مقاربة نظرية

أولاً- بناء الذات وتشكّل الهوية:

اهتم العديد من علماء الاجتماع بالذات كفاعل رمزي لدوره أو أدواره الاجتماعية، ففي كتاب "علم الاجتماع: المفاهيم الأساسية " الذي قام جون سكوت بتحريره، تمّ تناول مصطلحي الذات والهوية من منظور علم الاجتماع الذي يركز على الطرق التي تتشكل بها الذوات اجتماعياً، من خلال التنشئة الاجتماعية والتفاعل والذاتية، حيث قدمت نظرية الذات لجورج ميد George Mead بأنها الأكثر تأثيراً في القرن العشرين، متأثراً بآراء كانط ووليام جيمس، وصنّفت مقاربته بأنها مقاربة سلوكية اجتماعية، وقد "اقترح ميد أن التفاعل يتكشف عن "تحاور بالإيماءات" ...، إن هذه تشمل الذات أيضاً، بمعنى أن إسقاط دور الآخر على ذاتي، يمكنني من التأمل في ذاتي بينما أفكر في صورتي أمام الآخر، وهكذا أوفق سلوكي تبعاً لتلك الصورة"[1]، وهذا ما عناه تشارلز كولي Charles Cooley

[1]- جون سكوت، محرر، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص: 212.

بـ"الذات المرآة" Looking Glass Self، كما تأثرت نظرية الدور بمقاربة بارسونز البنيوية بتركيزها على وسيلة تنظيم السلوك الاجتماعي بناء على الأدوار والمواقع، والتوقعات المتعلقة بتنفيذ الدور، إلا أن منظرو نظرية التفاعل الرمزي اعتبروا الذات فاعلاً اجتماعياً، وأن الأدوار تقع في محل تفاوض ويتم تحديدها بصورة جماعية، وأن الفرد يمتلك ذوات متعددة ومختلفة بحسب مجموعة من الأشخاص الذين يتفاعل معها، متأثرين بالمنظور المسرحي لغوفمان في تقديم الذات، بأنها تتحرك بين مقدمة المسرح والذي يقدم فيها الفرد دور" الشخصية الاجتماعية المرئية علناً"، وبين الكواليس التي يخلع فيها الفرد ثوب الشخصية الاجتماعية، محتفظاً بهويته الذاتية[1]، ويرى نوربرت إلياس Norbert Elias "أن العملية الحضارية المتمثلة في الدمج الاجتماعي تؤدي بالفرد إلى أن يقدم من نفسه سوى الأجزاء التي يراها ملائمة لأعراف كل موقف. كما يتوقف على الدور المتسيد لديه"[2]، وهذا الدمج الاجتماعي قد أسماه قبل ذلك بعض العلماء بـ"التطبيع الاجتماعي"، ففرويد في أعماله الأخيرة تناول تأثيرات ما أسماه "التطبيع الاجتماعي: الذي تخضع له شخصية الفرد، فيتشرب منها أخلاقيات المجتمع وقيمه ومعاييره وضوابطه من الوالدين أو من يحوطه بالرعاية والاهتمام مكانهما، مكونة ما يسمى بالـ(أنا) الأعلى والذي يتأثر كثيراً بالـ(أنا) الأعلى عندهما، والذي تشرباه من الأنماط الثقافية والاجتماعية السائدة في البناء الاجتماعي ككل؛ وأيضاً في نظريته "النمو الاجتماعي" أشار اريك اريكسون Erik Erickson إلى أن نمو الشخصية وبروز هوية الفرد الشخصية؛ تحكمه عملية "التطبيع الاجتماعي" من خلال التأثر بثماني مراحل عمرية يمر بها الفرد في حياته، وكل مرحلة تمثل أزمة نفسية أو ضغط اجتماعي، تتطلب علاجها أو

---

[1]- المرجع السابق، ص:213.

[2]- المرجع السابق، ص:214

البحث عن حل لها؛ لكي يحقق الفرد ذاته الشخصية[1]، وهذه العملية أسماها بارسونز بعمليتي:"الاستدخال" و"الاستدماج"، وذلك في تناوله لما أسماه بعملية تحول الشخصية، كنسق يتأثر ويؤثر "من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، يتفاعل مع الآخرين ويؤثر في أغراضهم، ويتأثر بمشاعرهم؛ يتم في عمليتين، أولاهما تحدث داخل الشخصية، وهي تغيرات تؤدي إلى تغير بناء الشخصية، يسببها التغير في الأداء الوظيفي الذي يقوم به الشخص، والعملية الثانية تغير بناء النسق الاجتماعي، ويحدث هذا التغير أثناء فترة اكتساب الأدوار وتنظيمها في أطوار النمو المختلفة لاتساع علاقات المرء. وتؤكد هاتان العمليتان التلازم بين الشخصية والبناء الاجتماعي كنسقين متمايزين يتفاعلان سوياً لتحقيق الفعل الإنساني"[2]، فالعلاقة ما بين نسق الشخصية، وباقي الأنساق هي علاقة ارتباطية ومتكاملة، ارتباطية؛ لأن الفاعل -حسبما يرى بارسونز - ينظر إلى ذاته بما يتفق مع مكانته في النسق الاجتماعي، ومتكاملة حيث يدخل نسق الشخصية عبر عدد من العمليات التي من أهمها "الاستدخال" أو "استدماج القيم والمعايير " عن طريق عمليات التنشئة المختلفة، وما كان لهذه العمليات أن تؤدي دورها لولا أن نسق الشخصية نظام يقوم بالجمع مابين توجهات الفاعل ودوافع الفعل عنده، ويفرق بارسونز ما بين التوجهات والدوافع، حيث يرى الأولى ميول فطرية، والأخرى طاقات فيزيولوجية، وبالتالي فإن الشخصية عند بارسونز تتشرب كل القيم المرغوبة، والمعايير والقواعد المحددة، الموجودة في المجتمع، وتتوحد معها عن طريق ميكانزيمات التنشئة الاجتماعية، وميكانزمات الضبط الاجتماعي، وهذا من شأنه أن يحافظ على بقاء النسق واستقراره وتوازنه، بتحقيق التكامل والتكيف بين نسق الشخصية وبقية الأنساق الأخرى.

---

[1]- سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، صالح محمد على أبو جادو،، مرجع سابق ،ص:87.

[2]- البناء الاجتماعي والشخصية، محمد سعيد فرح،مرجع سابق،ص:110.

ثانياً- الشخصية العربية كهوية واحدة مقابل هويات محلية متعددة:

يشار إلى أن الهوية العربية (الشخصية العربية) كهوية واحدة تجمعها خصائص واحدة، ويشار إلى الهويات المحلية مثل: الشخصية الليبية، والعراقية، والمصرية، وغيرها من الشخصيات (الجنسيات العربية) كهويات متعددة ومنفصلة، وإن جمعتها بعض الخصائص، ويشير هنا بركات إلى أن هناك من يستخدم "مصطلح" الشخصية بمعنى جسماني، حيث يتم تشبيه المجتمع بالفرد، كما في وصف جمال حمدان لسكان مصر في دراسته شخصية مصر بأنهم "منبثون في تضاعيف وخلايا الجسم الكبير كجزء لا يتجزأ ولا يتميز"[1]، وهناك من يستخدمه بمعنى اجتماعي، كما في تعريف السيد يسين الذي عرفها بأنها: "السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما، التي تتسم بثبات نسبي، والتي يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة، وغيرها من الأمم"[2] .

وما سيعرضه البحث هنا ليس تحليلاً سوسيولوجياً يبحث في الهوية وإشكالاتها أو أزماتها، بل هو مجرد إشارات إلى صورة الشخصية العربية في كتابات ودراسات مختلفة، قد يكون لبعضها صفة الانطباعية فقط، وبعضها الآخر كان نتائج لدراسات وأبحاث إنتربولوجية وإمبيريقية، إلا أنها قد تظهر بعض السمات المشتركة التي قد يتفق عليها الجميع كمكونات لطبيعة المجتمع العربي وخصائصه البنيوية، بافتراض أن هوية الشخصية تنشأ وتتشكل بتفاعلها مع هوية المجتمع السائدة بثقافته وأنظمته، فالإنسان -وكما يقول حليم بركات-: "كائن اجتماعي ينشأ ويتكوّن ويحدّد أهدافه ومطامعه ويتمسك بتقاليده أو ينصرف عنها من خلال

---

[1]- بركات حليم ، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ،ط 6 ،1998،:ص113.

[2]- المرجع السابق ص:113.

التفاعل الاجتماعي وليس بالعزلة عن المجتمع والآخرين . الإنسان ...لا يولد جاهزاً تاماً يمتلك شخصية وعقلاً وذاتاً وروحاً ونفساً وهوية، بل تتكون هذه كلها بالتفاعل الاجتماعي ومن خلاله"[1]، وكما أكد بركات على أن نمو الشخصية عملية مستمرة باستمرار التفاعل مع المجتمع، فالمجتمع أيضاً متحول ومتطور في قوله: "ليس المجتمع العربي كائناً مكوناً جاهزاً ومخلوقاً في البدء، بل هو متطور ومتحوّل في هويته وثقافته ومفاهيمه وأنظمته ومؤسساته وحتى مقدّساته حسب أوضاعه وظروفه ومواقعه وصراعاته المستجدة "[2]، ويتفق العديد من الباحثين على "وجود شخصية عربية واحدة؛ لأن "هناك قيماً حضارية مشتركة تؤثر على السلوك الاجتماعي للشعوب العربية المختلفة مشتقة أساساً من الحضارة الإسلامية"[3]، مع الإشارة إلى أن هناك فروقاً قد تميز الشخصية العربية في قطر عربي عن آخر، كالشخصية المصرية أو الشخصية السودانية أو السعودية، كما أنّ هناك فروقاً بين الشخصية البدوية والريفية والحضرية .

الفصل الثاني

الصورة النمطية للشخصية العربية في علائقية الـ(أنا) والآخر، مقابل نموذج الشخصية المسلمة

المبحث الأول: صورة الشخصية العربية عند الآخر

جدلية الـ(أنا) والآخر أو كما أطلق عليها علي زيعور (علائقية الذات والآخر)، لم تكن من الموضوعات الرائجة في الفكر المعاصر فقط ؛ بل يمكن القول

---

[1]- بركات ،حليم ، الهوية أزمة الحداثة والوعي التقليدي ، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2004.ص:209.

[2]- المرجع السابق ص:209.

[3]- يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة ومفهوم الآخر، مرجع سابق ص:64.

إنها بدأت مع السؤال عن الهوية، فكما قال علي حرب السؤال عن الهوية هو: "سؤال يكرس التقسيمات المعهودة بين البشر إلى أقوام وأعراق أو طوائف وملل، أو إلى مناطق وعوالم"[1]، وعندما يذكر الآخر في هذا البحث فإنه يرمز إلى الغربي والمستشرق واليهودي وأي مختلف عنا، هذا الآخر الذي يصفه المفكر علي حرب في قوله: "لست غافلاً عن أن الغرب في علاقته مع الآخرين يتصرف بروح نرجسية بوصفه المركز والمرجع والهامش، وأنه يتعامل مع بقية الشعوب بوصفها كائنات تستهلك، ويرى الأوطان بوصفها مواقع لاستراتيجيته"[2].

وأكثر من أن تحصى أو تعد تلك الكتابات عند الآخر التي تناولت المجتمعات العربية أو الشخصية العربية، وفي كثير منها خصت المرأة العربية باعتبارها رمزاً للشرق، وعوالم الحريم، وبطلات ألف ليلة وليلة، كما أن "أهم ما يميز هذه الدراسات هو التركيز على الجوانب السلبية وإغفال الجوانب الإيجابية"[3]، فيورد السيد يسين في دراسته عن "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر" عدداً من الصور النمطية التي حددها بعض الباحثين الغربيين للعرب، مثل: جورج ديهاميل وجيب وريتان جوبينو،، التي تؤكد على "أن الذهنية الشرقية عاجزة تمام العجز عن التفكير التركيبي، وعن تجاوز الذات ...، أن الذهنية الإسلامية تتسم بالذاتية ...، الفكر الإسلامي غير قادر على عمليات التركيب"[4]، كذلك ما سجله إدوارد ويليام لين المستشرق البريطاني في تأكيده على أن "العرب هم شعب

---

[1]- حرب علي، تساؤلات حول الهوية العربية، آركون وآخرون، سوريا: دار بدايات ،2008:27-28.

[2]- المرجع السابق، ص: 36.

[3]- يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة ومفهوم الآخر، ص:69.

[4]- المرجع السابق، ص:72.

شديد الاعتقاد بالخرافات، وليس بينهم من هم أكثر اعتقاداً بالخرافات من شعب مصر، وأن الكثير من خرافاتهم تشكل جزءاً من دينهم"[1]، ويشير حامد عمار في دراسته عن "التنشئة الاجتماعية في قرية مصرية " في دعم فكرته التي ترى أن العربي يتسم بالشك، ذاكراً أن أهل القرية ترددوا كثيراً في تعاونهم مع حامد عمار في إجراء الدراسة الميدانية، فلم يمنحوه بياناتهم بسهولة، مقرراً "أن المشكلات الشخصية ينبغي أن تغطى لا أن تكشف للآخرين "[2].

ولتدعيم فكرته القائلة بفردية العرب استند إلى ما جاء في كتاب جميل صليبيا "التيارات الفكرية في سوريا ولبنان" من أن اللبنانيين والسوريين "حينما يدعون للعمل معاً بصورة تعاونية فإنهم يترضون وكل فرد يفضل العمل بمفرده"[3]، كما رد بيرجر تحليلاته لمفهوم الشخصية العربية، في أنها تستقي ذلك من المصادر الآتية: "قيم البدو الرُّحّل التي هيمنت على المجتمع العربي ....، ودعاوي الإسلام، والتاريخ الطويل للخضوع للأجنبي، والفقر الساحق، وأخيراً نماذج تربية الأطفال"[4].

كما تحفل أدبيات المستشرقين بنصوص عديدة "تعبر عن الاحتقار تجاه النساء العربيات، وخاصة منهن الفئات الفقيرة"[5]، وها هو أحد الفرنسيين ممن صاحب نابليون في حملته على مصر (1798) يصف نساء مصر بأنهن: "يرتدين جلباباً واحداً أزرق في العادة، قذراً دائماً، ويسرْنَ حافيات الأقدام، عاريات

---

[1]- بركات، حليم ، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي 1998ص:229 -230.

[2]- يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة ومفهوم الآخر، ص:154.

[3]- المرجع السابق ص:154.

[4]- المرجع السابق، ص:149.

[5]- زرويل ، فاطمة الزهراء، المسألة النسائية في الخطاب العربي الحديث من التحرير إلى التحرر ، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004: ص 96.

السيقان، ويلطخن حواجبهن بالكحل، وأظافرهن بالحناء، ويكشفن في مرح عن أي عضو من أعضائهن إلا وجوههن"[1].

المبحث الثاني: صورة الشخصية العربية كما تراها الذات من منظور عربي

عديدة هي الدراسات العربية التي اهتمت بدراسة الشخصية العربية أو المجتمع العربي، لعل أهمها دراسة الوردي "شخصية الفرد العراقي"، ودراسة شرابي "مقدمة لدراسة المجتمع العربي"، و"النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين"، ودراسة سعد الدين إبراهيم "النظام الاجتماعي العربي الجديد"، ودراسة حجازي "التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور"، والسيد يسين "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر"، ودراسة جمال حمدان "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان"، وحليم بركات "المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي"، ودراسة المنصف ونّاس "الشخصية الليبية "، ودراسة إبراهيم يحي الشهابي "الشخصية العربية".

ويذكر بركات عدداً من ظواهر التخلف الموجودة في المجتمع العربي المتخلف، منها: ظاهرة التبعية، ظاهرة الفقر، ظاهرة سلطوية الأنظمة السائدة المعادية للإنسان، سيادة العلاقات الاجتماعية الأولية (الشخصانية)، لا في القرى والأرياف فقط، بل حتى في المدن، كما وصف المجتمع العربي بأنه مجتمع تعبيري، فالأفراد والجماعات يعبرون عن مشاعرهم بعفوية، وباندفاع دون تفكير في النتائج ولا الغايات، وبدون تخطيط، وذلك بسبب سيادة النزعة التعبيرية في المجتمعات المتخلفة، عكس المجتمعات الصناعية التي تسود العلاقات الاجتماعية فيها نزعة

[1]- زرويل ، المرجع السابق :96-97.

المحاسبة Manipulative ness، حيث يعبر الأفراد فيها عن المشاعر والأفكار التي تحقق لهم نتائج وغايات محددة ومخطط لها[1].

وعن نوعية القيم السائدة في المدينة العربية، يرى بركات أنها مرتبطة بالموقع الطبقي حسب المستوى الاجتماعي الاقتصادي لكل طبقة، مشيراً إلى أن الطبقات البرجوازية تتمسك "بقيم النجاح والربح والكسب المادي والطموح والتحديث والاقتباس والسفر والانضباط والاعتماد على النفس ...، التشديد على العقلانية والواقعية والاعتدال والدهاء والشطارة والاستفادة من الفرص والإنجاز والانفتاح الذهني والفعالية وما شابه ذلك من القيم التي تسهم في تحسين مستوى المعيشة. يشجعون الاعتماد على الذات والفردية والإقبال على العلم والثقافة، مفضلين تلك العلوم العلمية التي تحقق لهم النجاح والنفوذ والغنى على العلوم الاجتماعية والإنسانيات وغيرها مما ينمي التساؤل والنقد وتغيير منطلقات النظام السائد"[2].

ومن أهم القيم العائلية التي تتمسك بها تلك الطبقة البرجوازية: "إن فكرة التعاون ما تزال قائمة، لأن النشاط الاقتصادي ما يزال شأناً عائلياً ...، يكاد ينحصر في عالم الرجال الراشدين ويعزل عنه الأطفال وحتى النساء اللواتي يشرفن على المنزل أكثر مما يعملن فيه . تحاط سيدات العائلات البرجوازية الكبيرة بالخدم، فيكتفين بالإشراف وينصرفن للتزين وتبادل الزيارات والمآدب ويتنافسن بشراء الثياب الفخمة والمفروشات الثمينة والمجوهرات والحلى وغيرها من أدوات الزينة ...، فيما يجاهد رجال المدينة في سبيل الكسب المادي، تنعم نساؤهم بشتى مظاهر الغنى .

---

[1]- بركات،مرجع سابق: 19-20.

[2]- بركات ،مرجع سابق:99-100.

وحتى حين يُقبلن على التعليم العالي لا ينتظر منهن في أواسط هذه الطبقات أن يتخذن العلم مهنة حياة "[1].

أما عن العائلة العربية في الطبقة البرجوازية الصغيرة (الطبقات الوسطى) فهناك "تشديد على التلاحم والتعاون دون عزل المرأة عن النشاط الاقتصادي كما في الطبقات الغنية. تميل النساء في الطبقات البرجوازية الصغيرة للعمل الجاد والكفاح جنباً إلى جنب مع أهلهن وأزواجهن فيما بعد . وهي -في الوقت الذي تعني فيه بإبراز رموز مكاسبه- تسعى إلى التوفير والتنظيم وتنشئة الأطفال على الاعتماد على الذات"[2].

بينما تشدد الطبقات الكادحة "على قيم العلاقات الشخصية في الجيرة والقيم العائلية والصبر والإيمان وتلك القيم المشابهة أو المتصلة بها، والتي تشارك فيها أهل القرى إلى حد بعيد"[3]، وأن مصدر القيم كما أشار بركات عند الطبقات الفقيرة "ليس المكتسبات المادية ولا الكفاح المرير، بل علاقاتها بالآخرين . إن قيمة القيم هي تلاحم العائلة والتضحية في سبيلها"[4].

المبحث الثالث: النموذج المثالي للشخصية المسلمة

أولاً- لمحة عن الواقع الثقافي للمجتمع العربي :

حاول خاطر في دراسته "المجتمع العربي المعاصر المقومات والأنماط والثقافة " وهي دراسة تحليلية نقدية تشخيص الواقع الثقافي للمجتمع العربي المعاصر، من خلال

---

[1]- المرجع السابق: 100-101.

[2]- المرجع السابق:101.

[3]- المرجع السابق:99-100.

[4]- المرجع السابق:102.

تناوله لبعض أعمال محمد الغزالي، من خلال مراجعة لأهم كتبه وأبحاثه في هذا الشأن، مستخدماً المنهج التاريخي الاستقرائي لمسيرة المجتمع العربي الحضارية، حيث انتكس الواقع الثقافي وتشوه، وحيث طال التشوه الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأدى إلى تشويه صورة الإسلام، وانحطاط حال المسلمين وتخلفهم، وحيث "اختلطت حقائق الإسلام بخرافات البشر، وأصبح المسلمون في عالم يبحث عن الحرية، يصورون الإسلام دين استبداد، وفي عالم يحترم التجربة ويتبع البرهان، يصورون الإسلام غيبيات مستوردة من عالم الجن، وتهاويل مبتوتة الصلة بحياة الناس"[1].

وفي محاولة تبريرية للواقع الاجتماعي والثقافي الذي يميز المجتمع العربي، يرى بركات أنه كان نتاج تفاعل المنطقة العربية مع الشعوب الأخرى، بسبب موقعها الجغرافي المتميز، الذي عرّضها إلى أن تمر بتجارب تاريخية واحدة، إضافةً إلى تأثير الهجرات السكانية، والحكم العثماني[2]، ولم ينسَ بركات تأثير الاستعمار في التاريخ المعاصر، الذي لجأ إلى "أسلوبين متناقضين في ظاهرهما، فعملت على تشجيع الاقتلاع الثقافي بفرض الثقافة واللغات الغربية من ناحية، وبتشجيع التفكير السلفي الغيبي من ناحية أخرى، وقد نشأ عن هذه السياسة ثنائية هائلة ضمن البلد الواحد بين فكر ليبرالي أوربي وفكر سلفي يغرق في متاهات الغيبية والماضي"،[3].

ويتفق خاطر مع بركات في أن منظومة القيم السائدة في المدن العربية، هي نتاج التفاعلات الحضارية المتعددة، فالموقع الجغرافي للوطن العربي في منتصف

---

[1]- خاطر، حسن على، المجتمع العربي المعاصر، المقومات والأنماط والثقافة، دار الشروق،2001: ص82.

[2]- بركات،مرجع سابق: 51.

[3]- المرجع السابق: 51.

العالم، جعل من مدنه مراكز حضرية استقطبت شعوب وحضارات أخرى، خصوصاً مع ظهور الإسلام وانتشاره بالفتوحات الإسلامية، كما أشار خاطر إلى دور مواسم الحج، ومنارات العلم والتجارة في الاحتكاكات والتفاعلات بين المجتمع العربي والمجتمعات الأخرى، وهذا قد أثر على ثقافة وسلوكيات وعادات سكان تلك المدن، كما أكد خاطر على تأثير الهيمنة الاستعمارية على منظومة القيم لسكان المجتمع العربي، وخاصة سكان المدن، الذين تأثروا بقيم ومفاهيم وسلوكيات المستعمر، ما يؤكد مقولة ابن خلدون: "المغلوب مولع بتقليد الغالب"، فتأثروا بهم في المأكل والملبس والمشرب وأنماط سلوكية غربية، ورأى أن هناك لا تجانس بين المدن العربية، لاختلاف وتنوع المستعمرين وظروف كل مدينة، ولا يمكن أيضاً إغفال تأثير الأجناس المختلفة التي دخلت إلى الإسلام؛ حيث إن جميع الدوائر الإسلامية كما يقول عبدالله خلايقي في كتابه "الإسلام العربي": " الإسلام الذي نشأ عربي الأصول والسمات وبقي محافظاً على هويته في القرنين الأول والثاني للهجرة غلب عليه في القرون اللاحقة الطابع الفارسي -الفرس والخراسانيون والبويهيون- ثم اصطبغ، بعد ذلك بصبغة تركية واضحة، وصاغت هذه المراحل التاريخية الكبرى صورة الإسلام ورسمت قسماً كبيراً من ملامحه الراهنة. إن جميع الدوائر الإسلامية قد تأثرت في تكونها وصيرورتها بعوامل مشتركة، إلا أن ذلك التأثير اختلف باختلاف البيئات، وبما توافر في كل بيئة من معطيات ومحددات تاريخية وثقافية "[1].

كما اهتم العديد من المفكرين والباحثين بأزمة التخلف لدى شعوب العالم الثالث، وكمثال كتب خلدون حسن النقيب كتاباً بعنوان: "آراء في فقه التخلف:

---

[1]- خلايقي، عبدالله، الإسلام العربي، سلسلة الإسلام واحد ومتعدد، بيروت: دار الطليعة، 2009: 8-9.

العرب والغرب في عصر العولمة "، جمع فيه ما نشره في الصحف والدوريات عن صراع الحضارات وتصادمها .

ثانياً- النموذج المثالي للشخصية المسلمة:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الشخصية العربية بمنظور إسلامي، مثل دراسة "الشخصية العربية" لإبراهيم يحيى الشهابي، ودراسة "الإسلام العربي" لعبدالله خلايقي، ودراسة "مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب" لمحمد عابد الجابري، ودراسة "الشخصية في الإسلامية وفي الفكر الغربي" لفؤاد حيدر، ولأن مجال البحث لا يسمح باستعراضها، سيتم الاستفادة من تلك الدراسات التي تناولت الشخصية المسلمة من أجل تطوير النموذج المثالي للشخصية المسلمة، وذلك باختيار عدداً من الخصائص أو السمات، وقد تم اختيار السمات من دراسة "الشخصية في الإسلام وفي الفكر العربي" لفؤاد حيدر، والتي يقدمها هذا البحث كنموذج مثالي للشخصية المسلمة:

1. سمات عقائدية: وهي "الايمان بالله، وبرسله، وكتبه، وملائكته، واليوم الآخر، والبعث والحساب، والجنة والنار، والغيب، والقدر.
2. سمات متعلقة بالعبادات: وهي أداء الفرائض من صلاة وصيام وحج وتقوى الله.
3. سمات متعلقة بالعلاقات الاجتماعية: وهي معاملة الناس بالحسنى، الكرم، والإحسان، والتعاون، والتماسك، والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعفو، والإيثار.
4. سمات متعلقة بالعلاقات الأسرية: وهي الإحسان بالوالدين وبذي القربي، حسن معاشرة الأزواج ورعاية الأسرة والإنفاق عليها .

5. سمات خلقية: وهي الصبر، الحلم، الصدق، العدل، الأمانة، الوفاء بعهد الله وعهد الناس، العفة، التواضع، القوة في الحق وفي سبيل الله، عزة النفس، قوة الإرادة، التحكم في أهواء النفس وشهواتها.
6. سمات انفعالية وعاطفية: وهي حب الله والخوف من عذاب الله، حب الناس وحب الخير لهم، كظم الغيظ والتحكم في انفعال الغضب، عدم الاعتداء على الغير وعدم إيذائهم، عدم حسد الغير، عدم العجب بالنفس، الرحمة، الشعور بالندم عند ارتكاب ذنب ما .
7. سمات عقلية ومعرفية: التفكير في الكون وخلق الله، وطلب المعرفة والعلم، وعدم اتباع الظن وتحري الحقائق، حرية الفكر والعقيدة .
8. سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية: التحلي بالأخلاق في العمل وإتقانه، كسب الرزق والابتعاد عن التواكل.
9. سمات بدنية: القوة والصحة والاهتمام بالنظافة والطهارة [1] .

الخاتمة:

من خلال مراجعة واستعراض بعض الدراسات والأبحاث والكتابات التي تناولت الشخصية العربية، اتضح أن هناك انتقاء للسمات السلوكية المشتركة، والصور النمطية للشخصية العربية، من أجل تأكيد التصنيف المعمم على كل العرب كهوية واحدة ثابتة غير متغيرة في كتابات الآخر المصّر على نسب الأنماط الشخصية العربية إلى الشخصية المسلمة، وبتشخيص الواقع الاجتماعي في المجتمعات العربية برزت خطورة التحديات التي تواجه الإسلام والمجتمعات

[1]- حيدر،،فؤاد، الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي، بيروت: دار الفكر العربي، 1990، ص ص: 267-268.

الإسلامية، وتبين أيضاً أن هناك تقارباً في الصورة النمطية للشخصية العربية التي ترسمها الذات في الكتابات والدراسات التي كتبها العرب أنفسهم بمنهج جلد الذات والنقد الذاتي لتلك الصورة النمطية التي ما يزال يؤكد على استمراريتها الكثير من المفكرين العرب بتجاهل النموذج المثالي للشخصية المسلمة الذي حاول البحث تقديمه، وفي هذا يوصي البحث باستخدامه في تطوير مقياس خاص للشخصية المسلمة في دراسات وأبحاث مستقبلية .

قائمة المراجع:

1. بركات، حليم، محرر، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص: 212.
2. بركات، حليم، الهوية أزمة الحداثة والوعي التقليدي، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر،2004.
3. بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6،1998.
4. الجوهري، عبد الهادي، قاموس علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1983.
5. حرب علي، تساؤلات حول الهوية العربية، آركون وآخرون، سوريا: دار بدايات ،2008.
6. حيدر، فؤاد، الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي، بيروت: دار الفكر العربي، 1990.
7. خاطر، حسن على، المجتمع العربي المعاصر، المقومات والأنماط والثقافة، دار الشروق،2001.

8. خلايقي، عبدالله، الإسلام العربي، سلسلة الإسلام واحد ومتعدد، بيروت: دار الطليعة، 2009 .

9. زرويل، فاطمة الزهراء، المسألة النسائية في الخطاب العربي الحديث من التحرير الى التحرر، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004 .

10. صدقي، عاطف، الثقافة والشخصية، بيروت: دار النهضة العربية ،1981 .

11. عبدالخالق ، أحمد محمد، الأبعاد الأساسية للشخصية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ،1987 .

12. عبدالله، محمد قاسم، الشخصية استراتيجياتها "نظرياتها" وتطبيقاتها الإكلينيكية والتربوية الشخصية والعلاج النفسي، سوريا: دار المكتبي، 2000.

13. فالادون، سيمون كلابيه، نظريات الشخصية، (ت) علي المصري، ط 2، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.

14. محمد عارف، المجتمع بنظرة وظيفية، الكتاب الأول: الوظيفية ملامحها العامة وأبعادها التاريخية وصورها المعاصرة، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية،1981 .

15. ونّاس، منصف، الشخصية الليبية: ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، تونى: الدار المتوسطية للنسر،2014 .

16. يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة ومفهوم الآخر، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1983.